

علي الحمامي المفكر الثائر

قراءة لمؤلف عمار بلخوجة:

"علي الحمامي من الريف إلى كراتشي، السيف والقلم"

الدكتور غوزي مصطفى، جامعة تلمسان

توطئة:

عمار بلخوجة باحث جزائري في التاريخ الجزائري، وكتابه "علي الحمامي" ينخرط في هذا الإطار، الذي يقتضي من أي باحث في مجال حساس، كالكتابة التاريخية المحفوفة بمزالق عدة أن يتصف الباحث بالكثير من الصفات ليس أهمها النزاهة، وأيضا التفرغ شبه الكلي للكتابة. إن التاريخ الجزائري في الحقبة المعاصرة ونقصد بالحقبة التي تشمل القرن التاسع عشر فالنصف الأول من القرن العشرين احتكر بالأساس وفي بادئ الأمر، من قبل مدرسة الجزائر والتي كانت كتاباتها التاريخية تعمل على تكريس فكرة تبرير الاستعمار الفرنسي وإضفاء الشرعية التاريخية على وجوده بالجزائر واعتبار الأرض الجزائرية قطعة من فرنسا وسكنيها من أصول قولية، ومع ظهور الحركة الوطنية برز تأريخ وطني يُقارع ويُناهض السردية الكولونيالية، التي تمثلها مدرسة الجزائر التي لم تذخر أي جهد في سبيل طمس الهوية الوطنية وكتابة توافق أهواء معتصب الأرض والعرض، في هذا الوضع الاقصائي وفي ظروف البؤس الاجتماعي انبرى ثلة من المؤرخين والمنضوون تحت راية الحركة الوطنية لتلك الكتابات التاريخية المكرسة للنظرة الاستعمارية الفرنسية وذلك ابتداء من عشرينيات القرن المنصرم، فانطلقوا في كتابة وتقييم تأريخ وطني يستغرقه مفهوم الجزائرية ويدل عليه، تأريخ أراه معركة كبرى من أجل استرجاع مقومات الشخصية الوطنية، سيكون لها الأثر العظيم في شحذ الهمم وإيقاظ العقول والنفوس ليوم مشهود تصطدم فيه الأبدان وتتقاتل حيث تكون فيه الغلبة والانتصار لأقوى سردية ومن ثمة السردية الأحق والأجدر في أن تنتشر وتستمر في الفعل فالتأثير.

امتازت كتابات مؤرخو الحركة الوطنية بطبيعة الحال بالخاصية النضالية باعتبارها - في ظروف الاستعمار غير الطبيعية- محركا للتأريخ الوطني، ثم إنها أيضا ردة فعل لتلك الكتابات ذات الحساسية الكولونيالية أو القريبة منها، والتي تسعى أن تُجلي عن الاستيطان الكتامة الشنيعة التي تلفها لفا وتبقيه منبوذا وصلفا في مطلق الأحوال.

كتابات تستجيب للتحويلات الكبرى التي شاهدها الجزائر بعد افتكاكها لاستقلالها السياسي العام 1962 وما نجم عنه بعد ذلك من أحداث مست المجتمع الجزائري برمته. إن التأريخ الوطني قد اكتسب منذ انطلاقة الأولى جملة من الخصائص، أولا يمكن أن نميز كتابات قد كتبت إبان الفترة الاستعمارية وأخرى كتبت أثناء الاستقلال وهي السائدة حاليا، المشترك بين الكتابتين يتمثل في إبراز الشخصية الوطنية وعمل على إظهار الإنسان الجزائري إنسانا داخل التاريخ يؤدي وظائف تاريخية مشهودة منذ فجر التاريخ الإنساني، فالتاريخ الوطني الجزائري له من العمق ما يؤهله أن يوصف بالتاريخ الإنساني الحي الفاعل في مجريات التاريخية، فالحادثة التاريخية الجزائرية بصفة عامة وعبر الصيرورة التاريخية والتي تمتد لألفي سنة تمتلك جميع الخصائص التي تجعل من حادثة ما حادثة تاريخية بالفعل، فهي حادثة فريدة من نوعها، والانفرادية تفيد وعي الجماعة وتماسكها الاجتماعي، وهي حادثة إنسانية، الإنسان الجزائري شعر ومارس المقاومة باعتبارها الوسيلة المثلى على تثبيت وتأكيده التميز الشخصي عبر محطات تاريخية - الرومان، الوندال، البيزنطيين، ومستهل الفتوحات الإسلامية، الفرنسيين-، وهي حادثة لها زمان ومكان وهذا بين واضح لا يحتاج إلى إفصاح، فالمكان يحتفل بالآثار والأزمنة تستقر في الذاكرة وتسكن، وهي أخيرا حادثة تُعرف بطريقة غير مباشرة وهذا التوصيف ملحق بالحادثة التاريخية متعلق بحيثيات المعيش الاجتماعي في لحظة معينة فالوضع الاجتماعي إجمالا يلعب الدور المحوري في تحديد الأولويات وترتيبها وعليه قد يفهم المهتم بعملية كتابة التاريخ الأسباب التي كانت وراء بزوغ التأريخ الوطني بالجزائري في العشرينيات من القرن الماضي، بزوغ رافق ظهور الحركة الوطنية. إن السياسي بصفته مسارا أو حركة مجتمع، فإن هذا المسار ينحز وفق تصور للتاريخ وهو بحاجة في كل مرحلة من مراحل وجوده إلى عناصر سردية هي بمثابة الوقود الذي يعطي قوة وزخما له، والكثير من هذه العناصر السردية يجدها ماثورة في صفحات التاريخ. أما الاختلاف في ظني أراه

في التموقع الذي يكون عليه المؤرخ، فالمؤرخ المنضوي تحت راية الحركة الوطنية قبل الاستقلال يقع على هامش السلطة السياسية غير معترف بها بشكل من الأشكال وبقدر من التصريح أو التضمين ولأجل هذا فإنه يتبنى إستراتيجية في الكتابة تناسب الظرف الذي هو فيه. غير أن المؤرخ المنضوي تحت الحركة الوطنية بعد الاستقلال فتموقعه يكون ضمن أو داخل السلطة السياسية المعبرة بطريقة ما عن الحركة الوطنية أو التي تمثلها في لحظة تاريخية ولأجل هذا فإنه يتبنى إستراتيجية في الكتابة تتماهي بدرجة من الدرجات - بحسب التكوين العام للمؤرخ وقناعاته الشخصية من مسار الحركة الوطنية- مع السلطة السياسية.

و في المقام نذكر أسماء لمؤرخين أسهموا في التأريخ الوطني، نبدأ بذكر الذين أسهموا إبان الفترة الاستعمارية، ثم الذين جاءوا بعد ذلك ممثلين لعهد الاستقلال والانعتاق:

1- الشيخ مبارك الميلي (1897-1945): كتب تاريخا جزائريا يضرب في عمق التاريخ إلى غاية الحقبة المعاصرة. صدر الكتاب سنة 1928.

2- توفيق المدني (1899-1983): أسهم في إظهار "تاريخ قرطاج" وذلك سنة 1927 وكتب كتابا آخر موسوم ب: "الجزائر" سنة 1932.

3- عبدالرحمان الجيلالي (1908 - 2010): نشر ابتداء من سنة 1952 مؤلفه " تاريخ عام للجزائر" في أربعة أجزاء.

4- مصطفى الأشرف(1917-2000): نشر له أول كتاب في مجال الفكر الجماعي سنة 1954 تطرق فيه إلى موضوع الاستعمار والإقطاع وقانون الأهالي في الجزائر، جمعت مقالات ظهرت في مستهل الخمسينيات وتمتد إلى غاية الستينيات في مؤلف اكتسب رواجاً موسوم ب: "الجزائر أمة ومجتمع" صدر سنة 1965. ملاحظة: كتب مصطفى الأشرف باللغة الفرنسية.

5- محمد شريف سهلي(1906-1989): كتب سنة 1947 "رسالة يوغرطة" وفي سنة 1953 "عبدالقادر فارس العقيدة". ملاحظة: كتب محمد شريف سهلي باللغة الفرنسية.

مؤرخون آخرون قد استعملوا اللغة الفرنسية وسيلة لكتاباتهم التاريخية من دون أن يتنكروا لانتماءاتهم الوطنية قد نذكر مولود قايد(1916-2000) اشتهر بمؤلفه من سبعة أجزاء موسوم ب: " تاريخ البربر" ومحفوظ قداش (1921-2006) من بين كتبه كتابه جزائر الجزائريون صدر سنة 1954.

يذهب البعض إلى الاعتقاد التأريخ الوطني المكتوب باللغة الفرنسية يحضى بقدر معتبر من التحرر ويفتح آفاقا عديدة في مجال التأريخ الوطني وذلك بطرح أسئلة جديدة وإقحام مقاربات منهجية مبتكرة على عكس التأريخ الوطني الذي يتخذ اللغة العربية وسيلة للكتابة والتعبير عن القضايا التاريخية ذات الصبغة الوطنية.

و في مستوى من المستويات يعد الباحث في التاريخ الجزائري عمار بلخوجة استمرارية لكتابة التاريخ الوطني انطلاقا من طرح أسئلة جديدة وإقحام مقاربات مبتكرة القصد من هذه أو تلك تقديم للقارئ مادة تاريخية ذات مصداقية تظهر التاريخ الوطني وتحديد التاريخ الوطني إبان فترة الاستعمار، فترة أقل ما يقال أنها غير معروفة بالكيفية الصحيحة، فترة لازلت لحد الساعة حاضرة على الساحة العمومية وفاعلة، فترة مشحونة بعواطف متعارضة، تستدعي من الباحث التاريخي توخي الحذر وعدم الإسراع في تقديم أحكام القيمة التي تعمل على تشويه البحث التاريخي وتحويله إلى جملة من العضات.

علي الحمامي واحد من بين رجالات الحركة الوطنية الذي وهب عمره للقضية الوطنية وللقضية المغاربية بصفة عامة إلا أنه غير معروف بالقدر الذي يستحقه من قبل الكثير من الجزائريين اليوم وتحديدًا أجيال الاستقلال. وكتاب عمار بلخوجة إسهام من قبل الباحث لإمارة اللثام عن الرجل وعن دوره الرائد في الحركة الوطنية والتعريف بالقضية الوطنية للعالم كافة.

علي الحمامي الإنسان المقدم :

كتب الباحث عمار بلخوجة في مستهل مؤلفه: " علي الحمامي 1902-1949 من الريف إلى كراتشي، السيف والقلم" وبإشارة التنبه أن علي الحمامي مناضل جزائري كبير،

ومغاري أفى حىاته كلها لأجل حرية شعبه، وكان همه أن يضع حدا للهيمنة الأجنبية والتأكد بقوة أن الإنسانية تعانى بشكل فضيع من الاستعمار وما يترتب من عذابات وولايات لا توصف.

إعادة تشكيل ما أنجز من قبل علي الحمامي يقتضي حتما البحث في عواصم أوروبية وعربية، حيث قضى سنوات عدة متنقلا بينها يكتب ويُناضل بحماس منقطع النظير، جلب له الاحترام والإعجاب من كل أولئك الذين خالطهم.

يذكر الباحث عمار بلخوجة أن علي الحمامي كتب الكثير من المقالات في مجلات وجرائد، التي كانت بطبيعة الحال تقبل نشر تأملاته الثاقبة والعاملة. فمنذ مرحلة الشباب الأولى أبان علي الحمام على وعي وطني نادر من جهة ومن جهة أخرى على رهافة فكرية..

تبدو مهمة الإحاطة بما تركه المناضل علي الحمامي في نظر عمار بلخوجة مهمة خيالية؛ لدى ينبغي الاستسلام للأمر الواقع وتقبل " القدر العاشر" ومن ثمة اقتصار البحث في حدود الزمن والمكان المتاحين. وذلك نظرا لعدم امتلاك الباحث على المؤشرات الكافية والدالة على أعمال الكاتب علي الحمامي، فالمراجع قد انتشرت وتوزعت في أمكنة عدة عاش فيها الكاتب المنفي، فالغاية 1988 لم تكن متوفرة سيرة ذاتية أو ترجمة ذاتية لهذا الثائر الفذ، فالدراسات الوحيدة التي اهتمت بإسهامات المفكر والأديب علي الحمامي تعود إلى الدكتور شيخ بوعمران¹، وعبدالقادر جغلول² وأمين الزاوي³، فالشيخ بوعمران قدّم لمؤلف علي الحمامي الوحيد الموسوم ب: "إدريس" صادر سنة 1948 بالقاهرة والذي أعيد نشره بالجزائر سنة 1976. خصص عبد القادر جغلول للحمامي دراسة نشرت بـ *L'Algérie-Actualité* العدد رقم 749 ، شهر فبراير من سنة 1980. أما بالنسبة لأمين الزاوي قدّم نقدا أدبيا باللغة العربية لمؤلف الحمامي الوحيد "إدريس".

بخصوص كتاب الباحث عمار بلخوجة والمتعلق بالثائر علي الحمامي، فقد قسّمه إلى فصلين، الفصل الأول عنوانه ب: المسار يبدأ من الصفحة 13 إلى غاية الصفحة 55 ، الفصل الثاني

عنوانه ب: فكر الإنسان يبدأ من الصفحة 59 إلى الصفحة 103، في الفصل الأول يُقدم عمار بلخوجة لمحة عن حياة علي الحمامي ابن مدينة تيارت حيث رأى النور والقرن العشرين عمره عامين، لم يتم ابن تيارت العشرين من العمر ليجد نفسه بالريف المغرب في خضم معارك بطولية كان يقوده الأمير محمد بن عبدالكريم الخطابي ضد التواجد الاستعماري الاسباني فالتواجد الفرنسي وبعد ذلك التواجد الاستعماري الأوروبي المتحالف مع العرش الاسباني المهالك، فقد لقن الريفيون في مواقع دروسا في الشجاعة والإباء للغزاة الإسبان وخاصة في موقعة أنوال بتاريخ 17-08-1921 والتي تركت صدمة كبيرة في نفوس الفئة الظالمة توازي في القوة صدمة معركة المقطع الذي سُحق فيه الجيش الفرنسي بقيادة تريزال في سنة 1835 من قبل أبطال الأمير عبدالقادر الجزائري، معركة أيضا تتقدم معركة ستنشيب في أقصى الشرق بين الجيش الاستعماري والقوات الشعبية الفيتنامية تهمز فيها القوات الغازية وتستسلم في أقصى الأرض من قبل فئة قليلة العدة والعدد يوم 17-05-1954. وبخصوص حيثيات معركة أنوال، وصل عدد المجاهدين إلى ثلاثين ألف، بينما وصل عدد القوات الغازية الإسبانية إلى ستين ألف، أسر المجاهدون ألف ومئة عسكري إسباني واضطر الجنرال سيلفستر إلى أن يضع حدا لحياته، نتيجة للهزيمة المدوية التي ابتلي بها أحد الجيوش الأوروبية المهمة. بعد إقامة علي الحمامي بالريف المغربي ومرافقته للقائد البطل الأمير محمد بن عبدالكريم الخطابي ومعايشته لأحداث تاريخية حاسمة، من مؤكد أنها ستترك أثرا في نفس الأديب المتعطش للحرية، يُرى علي الحمامي بمدينة باريس وقد تعبأ جوها بأخبار ثورة 1917 الندية وبنشاط الحركة النقابية والحزب الشيوعي الفرنسيين، المؤيدين للمطالب العمالية والمناصرين لحقوق الكادحين والمستضعفين عبر العالم من حيث المبدأ، مما جعل بعض الجزائريين المقيمين بفرنسا الالتحاق بهاتين الهيئتين ظنا منهم أن الهيئتين كفيلتان بتحقيق المطالبة المشروعة للشعب الجزائري. في هذه الظروف والتي تبعث على الأمل يلتقي ولأول مرة علي الحمامي مع الرئيس المؤسس لحزب نجم شمال إفريقيا السيد عبدالقادر حاج علي⁴. في سنة 1923 وتحضيرا للأهمية الشيوعية الخامسة من قبل الكومنترن⁵، عين الأمير خالد⁶ علي الحمامي على رأس الوفد الجزائري المدعو لحضور مؤتمر الأهمية الشيوعية الذي كان مزعم انعقاده في شهر جوان من سنة 1924، إلا أن قيادة الشيوعي الفرنسي بزعامة

الأمين العام للحزب آنذاك موريس توراز لم تشاطر الأمين الرأي، معتبرة أن وفد الحزب هو المكلف رسميا بتمثيل الجزائر وشمال إفريقيا لهذا المؤتمر، رفض علي الحمامي رفضا قاطعا هذه الوصاية المفروضة قهرا على الجزائريين، وعبر الحمامي رفضه لهذا التعنت بشكل مثير حيث رمى بمحبرة في اتجاه شخص موريس توراز فتلطخت بذلة الأمين العام للحزب بالحبر ، مما انجر عنه امتعاض الشيوعيين الفرنسيين. وفي الأخير تحقق مراد علي الحمامي واتجه بعد ذلك، أي في سنة 1924 إلى موسكو على رأس وفد يمثل تطلعات الجزائريين والمغاربة في الانعتاق والحرية. في موسكو تنسج وشائج صداقة جديدة تربط الحمامي مع مناضل قادم من بلاد الهند الصينية هوشي منه. يُفتقد أثر علي الحمامي بعد انتهاء المؤتمر، ليظهر ست سنوات بعد ذلك ومجددا في مدينة باريس أي في سنة 1930، لكن لا يطول مقامه بمدينة الأنوار، لينتقل متنقلا بين عواصم أوروبية، مواجهها المآسي والاضطهاد، ومرتبطا بصداقات مع شخصيات أمثال محمد باشا حامبا التونسي وشكيب أرسلان اللبناني..

صفوة القول: أن حياة علي الحمامي من سنة 1920 إلى سنة 1935 ليست بالحياة الساكنة أو الراكدة، بل هي حياة مغامر ومخاطر بدأت بأزيز الرصاص في الريف المغربي مع الأمير الخطابي لتستمر متخذة شكل النضالي السياسي بالكلمة والقلم، في مناطق واسعة من المعمورة. في الشرق الأوسط وتحديدًا في عاصمة العباسيين يفتك علي الحمامي لنفسه تأشيرة راحة المقاتل، ليسكن حينًا ويكتب مؤلفه "إدريس"، وفي سنة 1949 وبمدينة كراتشي يتوقف الجسد عن الحركة ليسمح للفكر من الخروج نحو آفاق تعد بما هو أفضل وأرحب.

في الفصل الثاني والذي جاء بعنوان فكر الإنسان، يعرض عمار بلخوجة أولا إلى الظروف والملابسات التي أحيطت بكتابة المؤلف "إدريس" وصدوره الأول بالقاهرة أيام الملكية، ثم يخصص عنصرا لقراء "إدريس" وهم كما ذكر أعلاه الدكتور شيخ بوعمران، الدكتور عبد القادر جغلول وأخيرا الدكتور أمين الزاوي. وأهم ما جاء في هذه القراءات، نذكره اختصارا:

1- الدكتور شيخ بوعمران: لاحظ الدكتور أن علي الحمامي امتلك ثقافة واسعة، قد اطلع على التاريخ الإسلامي وأيضا على التاريخ الأوروبي. يستشهد في أحيان كثيرة وينتقد

ساسة وفلاسفة أمثال ابن تومرت⁷ وابن رشد وابن خلدون والأفغاني⁸ ومحمد عبده⁹. المؤلف "إدريس" يركز على توثيق ثري، أما بالنسبة لخصائص الأسلوب المعتمد من قبل الحمامي فمميز، مع ميل أحيانا إلى البحث عن الكلمات النادرة الاستخدام. يقوم الحمامي برسم الشخصيات والمشاهد والمواقف بشكل تفصيلي أخاذ أو تهكمي. ويشد اهتمام القارئ باستمرار من خلال تنوع تيمي ..

2- الدكتور عبد القادر جغلول: يستهل الدكتور عبد القادر جغلول قراءته لكتاب الحمامي "إدريس" بأن يضع الإطار التاريخي للكتاب مصرحا بأنه إرث لنا، كتبه في مدينة بغداد بين العامين 1941 و1942 وباللغة الفرنسية وبمقدمة باللغة العربية كتبها الأمير عبد الكريم سنة 1948. ثم يمضي في قراءته موضحا أن "إدريس" هي رواية تمثل بزوغ الوطنية المغاربية المعاصرة. إن رواية "إدريس" ترمز إلى الانتقال من مرحلة معينة عاشتها الحركة المغربية المناهضة للاستعمار إلى مرحلة أخرى من مسار هذه الحركة، من المقاومة في الريف إلى الإضراب بمدينة فاس. إن الرواية هاته هي ليست رمزا للحظة تاريخية جديدة وحسب إنما هي أيضا إعادة استنطاق لتاريخ المغرب الكبير. تعد رواية علي الحمامي "إدريس" في نظر الدكتور عبد القادر جغلول من حيث البناء مركبة تركيب ثلاثي تستخدم كدعامة لأجل إبراز خطابين: الخطاب الأول مفاده إجمالا شجب الجور الاستعماري وتعسفه. الخطاب الثاني يكمن في النقد الحاد للمجتمعات المغاربية.

3- الدكتور أمين الزاوي: لم ينشر الباحث عمار بلخوجة قراءة الدكتور أمين الزاوي، قد يعود السبب في ذلك أنها كتبت باللغة العربية..

بعد هذا، يقوم الباحث عمار بلخوجة ببسط الخطب التأيينية والتي ألقيت بمناسبة دفن الشهيد من قبل عدد من الشخصيات نقتصر في هذه السانحة بذكر أسماءهم: البشير الإبراهيمي، فرحات عباس، محمد القليبي، أحمد باي، محمد القاهري، مصطفى بشير، مالك بن نبي.

و مع تمام الكتاب يقترح الباحث عمار بلخوجة على القارئ، ما كتبه المفكر علي الحمامي من كتابات تنبأ وتطلعننا على إبداعات وأفكار للشخصيات مغاربية في مجال الفكر والسياسة،

خصّ بالذكر العلامة المبدع عبد الرحمن بن خلدون، والمصلح السياسي المهدي بن تومرت، والمصلح الاجتماعي عبد الحميد بن باديس.

يضعنا المفكر علي الحمامي في مقدمته التعريفية للعلامة عبد الرحمن بن خلدون في أجواء مركبة مشحونة، قد اكتنفت حياة ابن خلدون الإنسان وساهمت بكيفية من الكيفيات في صقل وبلورة فكره الثاقب، عرف الرجل مباحج ومسرات البلاط وغياهب السجن، سار على القوم، ودنى من المجرمين العتاة.. بايع عشرات الأمراء ونكث، وبهذا الفعل تقدّم رجل السياسة الفرنسي تاليران¹⁰ Talleyrand . يرى علي الحمامي مهما قيل عن عبد الرحمن بن خلدون ونُسب إليه من صفات أخلاقية سلبية إلا أنه لم يكن قط بالروبيضة، أي نعم احتقر رجال زمانه لافتقارهم الصفات التي تؤهلهم ليكونوا في المستوى مع المواعيد التاريخية الحاسمة، بعد هذا الاستهلال والذي من خلاله تعرّفنا على العلامة ابن خلدون الإنسان في يوم جديد بفضل بطبيعة الحال علي الحمامي، يجمل هذا الأخير الإسهامات الفكرية الخلدونية والتي بمقتضاها تنهض الأمم والتي تتماشى في تصور علي الحمامي مع الفكر الوطني المتعالي الذي حرّك الجزائر وشمال إفريقيا عامة؛ ندرجها اختصار كما يلي:

أ- يعد ابن خلدون أول من وضع أسس فلسفة التاريخ والتي قطعت الصلة مع الكتابات التاريخية السابقة المبنية على الرواية المعنونة.. يرى علي الحمامي أن ابن خلدون تمكّن من تخلص السياسي من تضخمات أثقلته أمدًا ألحقت به، رابطًا إياه بمعايير اقتصادية، اجتماعية، وثقافية، أي إلى شكل من أشكال التقييم العلمي، حيث تُرى الأشياء بنظرة وضعية، وقد أزاحت عن نفسها غبار الغيبي والوهمي.

ب- لاحظ المفكر علي الحمامي أن النقد الخلدوني نقد ذكي، من طبيعة استقرائية، لاذع، يكتنفه بعض الغموض، منصبا على فكرة التمييز، وعلى فكرة الغلط (في التاريخ) والدقة (مثلا في الرواية) من المعلومات المتحصل عليها، مُدققا في هذه المعطيات من خلال إدراجها في سياق نظام فكري يقوم على منطق استقرائي. إن الغاية من دراسة التاريخ هو الوصول إلى معرفة متى يكون تاريخ ما حقيقي أي واقعي ومتى يكون تاريخ ما مزيف قد استبدت به الأهواء، لدى فقد

اهتم العلامة ابن خلدون بقانون السببية وتحديدًا في مسألة تشابه الأحداث التاريخية وعدم تشابحها.

ج- يجد المرء نفسه مضطرا إلى إبداء الإعجاب أمام قدرة ابن خلدون العقلية في مجال علم الاجتماع، والتي مكنته من فهم مجريات الأحداث في العصر الوسيط المتأخر من تفسخات أو تحلل على مستوى جميع الميادين؛ لاحظ المفكر علي الحمامي أن هناك بالفعل الكثير من مواطن الشبه بين مسعى مكيافيللي¹¹ ومسعى ابن خلدون، إلا أن هذا لا ينبغي أن يجعلنا نتغافل الفارق البين بين الرجلين: فابن العلامة متعلق بسياق ثقافي وإثني، يُعلي من شأن الصراحة أو الصدق. بينما السياق الثقافي والإثني الذي مكيافيللي منحط فيه يسود فيه المكر والإخفاء، وإن كان لابد من مقارنة فإن شخصية الفرنسي مونتسكيو¹² أقرب إلى شخصية عبد الرحمن ابن خلدون.

تتسع نظرة ابن خلدون الإنسانية، لتفتح مجالا لميل مادي قد اكتمل، بغية وضع حد لتعليم غائي محض وإلى لعب اجتراري (استطراذي) متمكن من المنطق الصوري؛ والميل الخلدوني ذاك مؤسس يحتكم إلى مبدأ استقرائي ووفق قانون التطور البشري الأبدي - دورة الحضارات من طور النشوء إلى طور القوة فالانحطاط ثم الاضمحلال- يفتح المفكر في هذا السياق عارضة ليدعو الشعوب المغاربية لتأخذ العبر مما ذكره العلامة بخصوص طبيعة الحياة البشرية والمبنية بمقتضى تطوري، فالأيام دول كما يقال، والقصد من كل هذا هو انقشاع الغشاوة الكاتمة التي تُحيط بالشعوب المغاربية..

د- ما يميّز النظرية الخلدونية في اعتقاد المفكر علي الحمامي هو تصديها للعنصرية البغيضة في هذه المسألة الحساسة تبرز عبقرية ابن خلدون للعيان وتصل نظريته إلى قمته، والتي تتجلى من خلال تحليل ذي شكل، وقدرة عميقة في التركيب مستوحاة من أسمى التقاليد الأخلاقية للإسلام تضاهي ما أتى به الأديب المبدع غوته¹³ - Goethe - فالمجتمع المغاربي كان على الدوام بمنأى عن التصورات العنصرية، بل يمكن الجزم في القول بأن ما يردده البعض من أفكار تمييزية بشأن الفوارق العرقية والتي قد يُضمّره المجتمع المغاربي، ترديد صادر عن عقول غير راشدة لا زلت في

طور الطفولة. لأن المجتمع المغربي إطار تاريخي جغرافي امتزجت فيه أعراق ولهذا، لا يمكن لهذا المجتمع وبهذه التركيبة البشرية الغنية إلا أن يكون إنسانيا بالماهية، وإن حدث خلاف ذلك فمرده إلى الاستعمار والذي يتحرك وفق مبدأ فُرق تسود.

من هذه العناصر الأربعة - وإن ذكر في مؤلف الباحث عمار بلخوجة العدد خمسة" المؤلفة للعقيدة الخلدونية"- قد يتساءل القارئ عن جدارة استخدام مصطلح عقيدة من عدمه في سياق علمي- والمرتبطة بتعلق العلامة بوطنه المغرب الكبير بالرغم من الحن وخيبات الأمل، يمكن اعتبار ابن خلدون هو رائد للحركات الوطنية في شمال إفريقيا..

-ماذا قاله المفكر علي الحمامي بخصوص المصلح السياسي المهدي بن تومرت: يبدأ الحمامي حديثه عن المهدي بن تومرت بقول أنه إن كان العلامة عبد الرحمن بن خلدون المنظر الأول للفكرة الوطنية، فإن المهدي بن تومرت يعتبر حوارياً هذه الفكرة. تقوم العقيدة الموحدة والتي أرساها ابن تومرت، على فكرة التوحيد المنزه للذات الإلهية، وعلى التجديد المجتمعي للشعب وذلك بمحاربة المظالم والتجاوزات والتي توافقت التأويل الصحيح للنصوص المقدسة، العمل على إخاض الأمة وذلك بتنشيط العامل الأخلاقي، التصدي للأعداء الصليبيين، تحقيق الوحدة الوطنية والمتمحورة حول الحدود الجغرافية للأطلس. يتساءل علي الحمامي عن السبب أو الأسباب التي كانت وراء نجاح الحركة الموحدة والتي يصفها في مقال آخر له بالمعجزة الموحدة، فيرد ذلك إلى قدرة هذه الحركة السياسية على نشر وتعميم عقيدتها بالاعتماد على طرق تتماشى وتوافق الطبيعة البشرية لأبناء المغرب الكبير والموسومة بالغلظة والجفاء، والتي غابت عن ذهن المحلل ابن خلدون والذي رغب كثيراً أن تجد أفكاره موطأ قدم في الأرض المغربية.. تسجل ملحمة الموحدين في صفحات التاريخ باعتبارها إنجازاً تحرري، سيحجر الأطماع الإسبانية أن تُرواح منطقة كاستيا حيناً وتُوجل محاكم التفتيش لوقت لاحق، كل هذا تم بفضل رؤية مستقبلية للقائد ابن تومرت والذي عُرف عنه الزهد وعدم الاكتراث لمباهج الحياة الحسية ورفضه الانتماء العشائري كمعيار لاختيار رجال الدولة الملقاة على عاتقهم المهام التاريخية الجسيمة، فلقد اختار خليفة لا ينتمي إلى قبيلته مصمودة حاضنة الفكرة الموحدة، هو عبد المؤمن بن علي القادم من

الجزائر وتحديدًا من منطقة ندرومة، والمنحدر من عائلة متواضعة، لم يتسنى للقائد المهدي بن تومرت من مشاهدة أفكاره السياسية الثورية تتحقق على أرض الواقع، فقد وفته المنية قبل الحدوث المرجو. وربما كان على يقين بأنه سيأتي اليوم وذاك اليوم يراه قريبًا، فقد هيأ الظروف المواتية والتي تجعل من ذلك اليوم الموعود ممكن الحدوث، وأهم هذه الظروف أن مكن لعبد المؤمن من أن يصير خليفة بعده على الرغم من وجود بعض الموانع أو العوائق والتي تمنع من السريان الفعلي لهذا التولي.

- ما قاله المفكر علي الحمامي بخصوص المصلح الاجتماعي عبد الحميد بن باديس¹⁴: استهل علي الحمامي تعريفه بالشيخ عبد الحميد بن باديس بإبراز أهمية وقيمة التعليم لدى الشعوب والأمم المتحضرة أو تلك التي تطمح إلى التقدم، إن التعليم هو كل شيء خاصة في زمننا زمن التحكم في الطاقة النووية. فمنذ حقبة الفرعون خوفو¹⁵، كان التعليم محركًا لعملية التطوير والتقدم. إن التعليم هو وحده الذي يجعل من الإنسان بالفعل، ويخرجه من دائرة البهيمية إلى دائرة الإنسانية، يخرجه من مملكة الضرورة إلى مملكة الحرية.. إذا تأتي أهمية الإنجاز الباديسي من خلال الموضوع المحوري الذي أخذه هذا المصلح على عاتقه والمتمثل كما ذكرنا في التعليم، فابتداءً من سنة 1931 سعى ابن باديس ومن خلفه جمعيته على نشر التعليم "التنويري" في أوساط الشعب الجزائري والذي يعاني من أعظم أفاتين آفة الاستعمار الاستيطاني والذي طوال القرن عمل على تدمير الشخصية الجزائرية من خلال سياسة التجهيل والسماح للتصورات الخرافية اللامعقولة من تجد لها موطأ قدم؛ الآفة الثانية هو إلحاق بالدين الإسلامي كل ما هو رجعي خوارقي، وعليه فإن المهمة التي كانت على الجمعية تأديتها مركبة تقوم على مقاومة المرض على جبهتين، الجبهة الاستعمارية والتي تستدعي إيقاظ الوعي الوطني الجزائري، ويكون ذلك ببث تعليم يسمح مجددًا من إظهار مقومات الشخصية الوطنية الجزائرية، تعليم يستفيد منه الشباب الجزائري والشابة الجزائرية أيضًا، الجبهة الداخلية وتتمثل في مجاهدة وبشدة كل ما علق بالدين الإسلامي من أشياء معطّلة التي تُصير الدين إلى جُملة من الخوارق والخزعبلات تُسيء للدين وإلى رسالته الإنسانية، رسالة عنوانها الحرية والكرامة للجميع.

و في الختام لا يسع المرء إلا بالاعتراف بضخامة ونبل العمل الملقى على عاتق الباحث في ميدان التاريخ وتحديدًا في التأريخ للحركة الوطنية الجزائرية والتي تبدأ في تصور المفكر علي الحمامي منذ الأيام الأولى لبداية الحركة الموحدة بقيادة المهدي بن تومرت، بصفته حواري هذه الحركة المباركة في شقها السياسي ثم بعده يأتي باعث هذه الحركة ورائدها المفكر عبد الرحمن بن خلدون. يبدو لي وفي مستوى من المستويات فإن ما يقوم به الباحث عمار بلخوجة هو استمرارية لهذا الجهد الإنساني والذي يخترق الحقب التاريخية ويرتفع عاليًا فوق الأجيال المتتالية، كل لأجل تكريس الفكرة الوطنية والذود عنها، بأساليب مختلفة يقتضيه الظرف ومؤهلات الشخص الذائد واستعداداته.

الهوامش:

- 1- شيخ بوعمران من مواليد مدينة البيض سنة 1924 حاز على دكتوراه دولة في الفلسفة من جامعة باريس سنة 1974، توفي سنة 2016 عن عمر ناهز 92 سنة.
- 2- عبدالقادر جغلول من مواليد 1946 توفي سنة 2010 انشغل بالدراسات الاجتماعية ويعتبر واحد من الذين أسهموا في التعريف بعلم الاجتماع بالجزائر ولم يقتصر انشغاله بالقضايا الاجتماعية بل اهتم كذلك بالأنثروبولوجيا وعلم النفس.
- 3- أمين الزاوي من مواليد 1956 بتلمسان روائي جزائري مارس التدريس في جامعة باريس 8 يكتب باللغتين العربية والفرنسية.
- 4- عبد القادر حاج علي ولد بدوار سيدي سعادة بغيليزان سنة 1883 انضم سنة 1920 إلى اتحاد المستعمرات برفقة الزعيم الفيتنامي هوشي منه. كان لحاج علي دور كبير في انضمام مصالي الحاج إلى صفوف الحزب الشيوعي الفرنسي وساهم رفقة في تأسيس نجم إفريقيا سنة 1926 للدفاع عن مطالب العمال المغاربة في فرنسا قبل أن يتحول إلى حزب يُطالب باستقلال الجزائر. توفي عبد القادر حاج علي سنة 1957. (المرجع عن تاريخ الجزائر، وزارة المجاهدين، بتصرف)
- 5- الكومنترن لفظ مختصر لعبارة الأهمية الشيوعية وهي منظمة شيوعية أممية ترفع شعار الشيوعية العالمية المناهضة للبورجوازية العالمية أسست سنة 1919 لتحلّ من قبل ستالين سنة 1943.
- 6- ولد خالد الهاشمي بن عبد القادر سنة 1875 بدمشق وتوفي بالمدينة نفسها سنة 1936. يرى الدكتور أبو القاسم سعدالله أن الأمير خالد هو من أسس الحركة الإصلاحية، فقد استغل الرصيد النضالي لجدده الأمير عبد القادر ومعرفته للحضارة العربية الإسلامية للوقوف في وجه السياسة الاستعمارية بعد الحرب العالمية الأولى. أسس الأمير خالد جريدة الإقدام سنة 1920 للتعبير عن أفكاره والدفاع عن فكرة المساواة بين الجزائريين والفرنسيين في الحقوق السياسية.

- 7- ابن تومرت: هو محمد بن عبد الله بن وجليد بن يامصال من مواليد سنة 1077 توفي سنة 1130 أقرّ الموحدين بإمامته والتي تُشكل ركنا من أركان الدعوة الموحدية، بدأ دعوته سنة 1121 دعا قبائل مصمودة إلى مبايعته وكوّن منهم جيشا قويا جعل على رأسه عبد المؤمن بن علي للقضاء على المرابطين.
- 8- هو جمال الدين ولد سنة 1839 وتوفي سنة 1897 يعد من رواد الإصلاح في العالم الإسلامي اشتهر بكتابه " الرد على الدهريين".
- 9- محمد عبده (1849-1905) عالم دين وفقهيه ومجدد إسلامي مصري، يعد أحد رموز التجديد في الفقه الإسلامي ومن دعاة النهضة والإصلاح في العالم العربي والإسلامي.
- 10- هو شارل موريس تاليران، سياسي ودبلوماسي وقائد عسكري فرنسي ولد سنة 1754 وتوفي سنة 1838، شغل مناصب عليا في العهد الملكي وبعد ذلك في فترة الثورة الفرنسية، ساهم في مؤتمر فيينا سنة 1815 رجل أنوار وليبرالي مقتنع، كني بالشيطان الأعرج ، شخصية مثيرة للجدل فمن جهة هناك من يصفه بالخائن غير المكثرت المثقل بالخطايا والارتشاء ومن جهة هناك من يصفه بالقائد البراغماتي ذي الرؤية الثاقبة.
- 11- مكيا فيلي مفاكر إيطالي من مواليد 1469- توفي سنة 1527 منظر سياسي.
- 12- شارل لوي دي سيكوفلد مونتسكيو ولد سنة 1689- توفي سنة 1755 فيلسوف فرنسي صاحب نظرية الفصل بين السلطات التشريعية والتنفيذية والقضائية، وإن كان لا يعد الأول من تحدث في هذه المسألة فالفيلسوف البريطاني أيضا تحدث عن الفصل بين السلطين التشريعية والتنفيذية، أما السلطة القضائية فهو الجديد الذي جاء به مونتسكيو.
- 13- جاء في موقع ويكيبيديا يوهان فولفغانغ غوته 28 أغسطس 1749 - 22 مارس 1832 هو أحد أشهر أدباء ألمانيا المتميزين ترك إرثا أدبيا وثقافيا ضخما للمكتبة الألمانية والعالمية، وكان له بالغ الأثر في الحياة والأدبية والفلسفية..
- 14- عبد الحميد بن باديس مصلح اجتماعي جزائري ولد أواخر سنة 1889 توفي سنة 1940 أسس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين سنة 1931، اقترن اسمه بالعارة الشعرية: شعب الجزائري مسلم - وإلى العروبة ينتسب.
- 15- هو الفرعون الثاني من الأسرة الرابعة، خلف والده الفرعون سنفرو، باني الهرم الأكبر على هضبة الجيزة، والذي يعتبر من عجائب الدنيا السبع، شيّده سنة 2650 ق،م، أشرف على بنائه وزيره حم إيونو (هامون) .